

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو^(١) ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذي له الملْك ، وهو وحده القادر على كل شيء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يخطئوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قِيَوْمٌ^(٢) ؛ لا تأخذه سنة^(٣) ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لعلموا أن الله يملك بحق من يظلم فوق الذي ظلمه .

ورأينا في حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هولاً من مصيرهم لو تحكم فيهم من ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ^(٤) وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران] .

(٢) القِيَوْمُ والقيَامُ في صفة الله تعالى وأسلابه الحسنی القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بإمكانتهم . وقال قتادة : القِيَوْمُ القائم على خلقه بأجلهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب - مادة : قوم] .

(٣) وَمِنْ يَوْمَئِذٍ سِنَةٌ : نلم نومة خفيفة ، السِّنَّةُ : لفظة . قال تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة] أي : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أي نوم ، أي لا تأخذه غفلة عن أي شيء .

ولا نوم من أي نوع ثقل أو خف كثر أو قل . [القاموس القويم ٣/٢٣٨] .

(٤) قال الفرطس في التفسيره (٤/٣٤٨) : « معناه استكمال القوة ثم يكون التماسك بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم . »

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾ (٢٢)

[يوسف]

أى : وصل إلى غايته في النضج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فور أن يبلغ أشده ؛ ويصير في قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش في بيت ممثلي بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إن لم يكن بحروساً بالحكمة والعلم ؛ ستولد فيه رعونة^(١) ؛ ولهذا فقد حرصه الحق بالحكمة والعلم .

والحكم هو الفاصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحكم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذي يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذي سيكون منه تاويل الرؤى^(٢) ، وغير ذلك من العلم الذي سرف يظهر حين يؤلى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أشده وحرصه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

[يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لما هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة : الحق والاسترخاء . والأرعن : الاموج في منطقه . [لسان العرب - مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا ؛ وهي ما تراه في منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى في منامه رؤيا : حكم . والرؤيا : العلم في المنام . [القاموس القويم ٦ / ٢٥٠] .

الحُسْنُ ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قدر الله أن جعله فقيراً ،
ويحاول أن يُحسن ويُتقن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْنِ الجزاء : أنت
قبلت قدرى ، وأحسنْتَ عمَلَك ؛ فخذُ الجزاء الطيب ، وهذا حال عظماء
الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قدرِ
الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعصم
الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر
بعدما أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴾ (٢٢)

[يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة^(١) ،
وهنا بدأت متاعبه فى القصر ، ففى طفولته نظرت إليه امرأة العزيز
كطفل جميل ؛ فلم يَكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغير . فقد بدأت تدرك مفاتحه ؛
وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

(١) الفتاء : الشباب ، والفتى والفتىة : الشاب والشابة . نال الفتى بمعنى الشاب
والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال . قال الشاعر :

إِنَّ الْفَتَىَّ حَمَالٌ كُلُّ مُلْمَسَةٍ لَيْسَ الْفَتَىَّ بِمُتَعَمِّ الشُّبَّانِ

[لسان العرب - مادة : فتا] .

بالعاطفة المشجوبة^(١) ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتي النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه : لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علّة غَضُّ البصر عن المثيرات الجنسية : لأنك إن لم تغضّ البصر أدركت ، وإن أدركت وجدت ، وإن وجدت نزعت إلى الزواج أو التعفف بالكَيْت في النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عرّبت^(٢) في أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ^(٤) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٢١) ﴾ [النور]

(١) شب النار والحروب : أوقدها . وشبّة النار : اشتعلها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبي عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شُبّت النار وشبّت هي نفسها ، قال ولا يقل : شاباً ، ولكن مشجوبة . [لسان العرب - مادة : شيب] .

(٢) رجل عرّيد وعرييد وعريد : ضَرَبَ مَطَاراً ، ويقال للمعريد : عرييد كأنه شبه بالمية . [لسان العرب - مادة : عريد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمّي به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول : قال تعالى في قرآنه : ﴿ وَهَذَا عَلَىٰ شَيْخَا .. (٢١) ﴾ [نور] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَحْمَتِي .. (٢٢) ﴾ [البقرة] أي : وأزواجهن أحق برحمتي بعد الطلاق الرجعي - وبعد طلاقه بآنة أو ظليتين بانفتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/ ٧٦] .

(٤) الأرب : الحاجة التي تقتضي الاحتياج لها ، وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَرِ الشَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٢١) ﴾ [النور] أي : غير ذوي الحاجة إلى النساء . أي : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو حيزهم أو سفهم . [القاموس القويم ١/ ١٧] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حدا لا يجطه يفكر فى
الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى
فتوته ، بعد أن بلغ أشده نظره مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى
قوله :

﴿ وَرَاودَتْهُ أَلْفَىٰ هَوًىٰ بِبَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ ^(١)
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنُ مَشَٰوًىٰ ^(٢)
لِنَعْمَلِ بَقَرٍ لِّمُوتٍ ۖ ﴾ (٣٣)

وساعة تصمم «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فاعل »
أو « تفاعل » ومثل : « شارك محمد عليا » أى : أن عليا شارك محمدا ؛
ومحمد شارك عليا ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُراودة مطالبة برفق ولين يستقر ما تريده ممن تريده ؛ فإن
كان الأمر مُسهلاً ، فالمُراودة تنتهى إلى شيء ما ، وإن تأبى الطرف

(١) غلق الباب يغلقة غلقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلقة بالتنسيخ للعلاقة فى إغلاق الأبواب
وإحكامها . كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ ۖ ﴾ (٣٣) [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمين
على نفسها من الناطلين . [القاموس القويم ٥٩/٢] .

(٢) هَيْتَ الشيء : أعدته وجهازه ويسره ، قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَهْئاً ۖ ﴾ [الكهف] أى :
يسر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهبت للأمر : أعدت نفسي له ، وقدرت فى
سورة يوسف عليه السلام (وهبت لك) أى : أعدت نفسي لك . و (هيت) : اسم فعل
أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ ﴾ [يوسف]
والمعنى : أقبل . واللام للتنصية ، أى : أدعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم
٣١١/٢ ، ٣١٢] .

الثاني بعد أن عرف المراد : فلن ننهي المرافدة إلى الشيء الذي كنت تحسب^(١) إليه .

وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبت به برفق ولين في أسلوب يخدعه ليُخرجها عما هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبت أن يحضر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه في بيتها ؛ وهي مُمكنة منه ؛ فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربى في بيتها ؛ وهي التي تتلطف وترق معه ، وقهم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب راقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿وَرَاودَتْهُ الْمَرْءُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ..﴾ [يوسف]

وكلمة : ﴿عَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ..﴾ (٢٣) [يوسف]

توضح المبالغة في الحدث ؛ أو لتكرار الحدث ، فهي قد أغلقت أكثر من باب ، ونحن حين نحرك المزلاج^(٢) لنؤكد غلق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غلق الباب .

(١) صبا يصير : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿وَلَا تُصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أُمَّيَ إِلَيْهِنَّ رَأَيْنَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف] أي : أمل إليهن وأعمل ما يُغريهن به ، وصبا إلى النهي : حزن واضطراب إليه وحسبه . [القاموس القويم ٢٦٨/١] .

(٢) المزلاج والمزلاج : مفلاق الباب ، سمي بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أي أغلقتها . والمزلاج : المغلاق إلا أنه يفتح باليد ، والمفلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غلق الباب ؛ وإذا أضفنا مزلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليَلْقَى العظيم الذي جاء ليقابله .

ويحمل لذا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب^(١) أنها أبهة^(٢) ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكت عنها عمر^(٣) .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل يصحبه الحرس من باب ، وظن أنه سرف يلقي معاوية فور الدخول ؛ لكن الحرس اصطفيه عبر أكثر من باب ؛ فلم يتخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضنَّ عليه بمناداته كامير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

(١) الأريب : الماثل . والإرب والأرب : الدهاء والبصير بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الإرب : الدهاء والسكر . [لسان العرب - مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [لسان العرب - مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو علي الفاي في أماليه (١٣٦ / ٢) : « قال المغيرة بن شعبه : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

نفطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : فنجد أن امرأة العزيز قد غلقت الأبواب : لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستتر فعله ، وهي قد حاولت ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثت المراودة وأخذت وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلت من مرحلة المُرَاوِدَة إلى مرحلة الرضوخ في طلب الفعل : بأن قالت : هياتُ لك : وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذُ هو مَنْ تستعِذُ به ، وأنت لا تستعِذُ إلا إذا خارتُ أسيايك أمام الحدث الذي تمرُّ به عليك تجد مَنْ ينجذك : فكان المسألة قد عَزَتْ عليه : فلم يجد مَعَاذًا إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم : وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبي ﷺ عقد على ابنة ملك^(١) : كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت
بعض من نساء النبي بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة
رضي الله عنها : إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنا . وقالت
للحروس : إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب من يقولها^(٢) . فسالت الفتاة
عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولي ، أعوذ بالله
منك .

فغادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُدَّتْ بمعاذ »^(٣) وسرحها
السراح^(٤) الجميل .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت
لحظة أن تمثّل لها الملاك بشراً سوياً^(٥) :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (١٨) [مريم]

فهي استعانت بمن يُقدر على إنقاذها .

(١) جاء في الطبري أنها ملكة بنت داود القليبية (١٢٢/٢) أو شاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٢) .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٢٥٩/٩) : « وقع عند ابن سعد (في الطبقات) أن عائشة
رحمته دخلت عليها أول ما قدمت فمضططها وخضبتاها وقالت لها إحدهما : إن النبي ﷺ
يحبها من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبي أسيد رضي الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَصَالِحٌ أَمْعَمٌ وَأَسْرَمٌ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴾
(١٨) [الأحزاب] أي : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٥) السرى من الرجال : من ليس في خلقه عيب وليس في بدنه مرض ولا آفة ، فقلوه : ﴿ قَالَ
رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيَّةً قَالَ لَيْفَكَ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ نِوَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم] أي : حالة يكونك كامل
الخلق لا خرس بك ولا بكم ولا أي عجز ، وقوله : ﴿ فَصَلِّ لَهَا بِشَرًّا سَوِيًّا ﴾ [مريم]
مستوى الخلق في صورة إنسان كامل جميل وهيء . [القاموس القويم ٢٢٩/١] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ^(١) إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) ﴾

[يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحت ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجّاه من الجُبِّ ؛ وهباً له أفضل مكان في مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشدّه .

وبعد كل هذا يستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ! طبعاً لا .

او : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

ليُذكّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعو لنفسها : بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف ، وتختار له مكان إقامة يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

(١) المَثْوَى : اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (٢٧) ﴾ [ال عمران] اسم مكان مُصَدَّبُ النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] أي : إقامته . أي : أكرمى يوسف وعبر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا ملائمة المجازية ، [الفاموس القويم ١/ ١١٢] .

وتلك مِيزة أسلوب القرآن : فهو يأتى بعبارة تتسع لكل منامات
الفهم ، فما دام الله هو الذى يُجازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى
نفس للعوقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يسىء يأتى الله بالضد : فلا يُفلح : لأن
القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

و ﴿ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣)

[يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهٖ ^(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا ^(٢) أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ ^(٣)
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ ^(٤) ﴾ (٢٤)

(١) هم بالفعل بهم به عما : قصده واتجه إليه بنيت ولم يفعله ، قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا
يَسْطُرُوا إِلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ لَكُفَّ أَيْدِيهِمْ ۖ ﴾ [المائدة] أى : عزموا واتجهت نيتهم إلى حربكم
والتعدى عليكم وإيذاً لكم لكنهم الله ، وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ
هَمَّتْ بِهٖ رُحْمُهَا ۖ ﴾ [يوسف] همت به : هم عزم وتصميم . وقم بها هم ترك وإعراض
ومقاومة . أى : هم بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٢٠٧/٢ بتصرف] .
(٢) البرهان : الحجة البينة الفصلية ، قال تعالى : ﴿ قُلْ خَاتَرَا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة]
وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ ۖ ﴾ [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التى
تبينته على الحق وصرفته عما هم به - أو لولا أن رأى برهان ربه ، أى الدليل على قديم
سيده وحضوره ، والسر الله مجيء سيده إلى البيت فى هذا الوقت ليصرف عنه الشؤء .
[القاموس اللويزم ٦٥/١] .

(٣) أغلصه الله : حطه صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول مغلص ، بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِنَ
عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الانتقاء المطهرين . [القاموس القويم ٧٠٢/١] .

والهم هو حديث النفس بالشئ : إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه .
ومن رحمة ربنا بخلقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدثته نفسه أن يفعلها :
ولم يفعلها كتبت له حسنة^(١) .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر العراودة التي كانت منها ،
والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفاعلة بين اثنين
يصطرعان في شئ .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين
قالت : « هيت لك » وكذلك بين موقف يوسف عليه السلام حين قال
يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً : وتساوى في حديث
النفس : لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فهْمنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها : لأننا
نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود : مستلماً نقول ﴿ لولا زيد عندك
لأتيتك » .

والقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع
عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجد منه ؟

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت
له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرين إلى سبعين ضعف » . ومن هَمَّ بسيئة
فلم يعملها لم تكتب . وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان
(حديث ٢٠٦) .

ولمّاذا لم يَقُلْ الحق : لقد هَمَّتْ به ولم يهَم بها : حتى تخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطة المطلوبة : لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل : وإن لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عَجْزٌ^(١) أو خَصَصَاء موقوف أنها سيديته فسخرت قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهَمَّ بها : لكان المانع من الهَمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارئ لأنها سيديته فقد يمنعه الحياء عن الهَمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أشده ونُضِجَه : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه : ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيّعت رجولته بغتة^(٢) : مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف . حين لا يستطيع أن يقرب عروسه : وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمِّ على الإطلاق : ومن غير شيء ، لَكَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهَم بها .

(١) العجْز : الذي لا يأتي النساء ولا يريد من بين الحناة . وعَجْزٌ عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِعَ عنها بالسحر . وامرأة عجيْزة كذلك : لا تريد الرجال ولا تفتويههم . وسُمِّيَ عَجْزاً لأنه يعجز ذكره لقب المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [لسان العرب - مادة : عجن] .

(٢) بغتة بغتاً وبغتة : فاجاء على غرة وغلة ، قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَاهُمْ فِيَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف] والمبغتة : المفاجأة واليَغْتُ والغتة : القبلة ، وهو أن يفجأك الشيء . [لسان العرب - مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نقي للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهمّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لطيف الله بالخلق أنه يوجب الالتقاءات المتساوية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويعجز أن الخادم قد فكر في أنه لو همّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرد الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

ومنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها قال الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (١٤)﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهمّ ، فواحد همّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهي المسألة ، ولذلك فلا داعي أن يدخل الناس في متاهات أنه همّ وجلس بين شعبتيها^(١) ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل^(٢) ؛ فافسقُ الفساق ولو تمثّل له أبوه وهو في مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تتلّش من رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة^(٣) يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : اتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرت إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزیز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكّك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتي دعّهنّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكلّ هؤلاء تضاعفوا^(٤) على أن يوسف لم يحدث عنه شيء .

(١) في الحديث : « إذا تعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الفسل ، شعبها الأربع : يداها ورجلاها . رقل : رجلاها وشقرا فرجها ، كنى بذلك عن تفتيت الخلقة في فرجها . [لسان العرب - مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وعصميد بن جبير : رأى صورة يعقوب على الجدران عاكساً على لئيمته بثوبه فسكن ، وخرجت شهوته من أنفكه . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢/٤٤٩٢] .

(٣) رجل نحيل : فحل . وإته لبين الفحولة . غير خصي بل هو منجب . [لسان العرب - مادة : فحل] .

(٤) تضاعف القوم على قتلان وتضاعفوا عليه وتضاعفوا بمعنى ولعدّ كل إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتآلفوا وتضامفوا مثله . قال ابن سيده : تضاعف القوم على الأمر تضاعفوا وتعاونوا عليه . [لسان العرب - مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصَدِّقَةً لِمَا قَالَ :

﴿ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ^(١) .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

وقالت : ﴿ الْآنَ خَصِمٌ ^(٢) الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ^(٣) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٥٢) [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٥٠) [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَالْأَنصَرِفَ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

والنِّسْبَةُ هي حديث النفس بالشئ : وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من النِّسْبَةِ : لأن الحق سبحانه قد قال :

(١) استعصم : طلب لنفسه العصمة وتسله بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ (٢٧) [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وبقائه نفسه وبخفائها من السوء . [القاموس القويم ٢٤/٢] .

(٢) خصم الحق : رشح وتبين بعد خفاؤه . قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ خَصِمٌ ^(٢) الْحَقُّ .. ﴾ (٥١) [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « المصممة : بيان الحق بعد كتمانه » . [مادة خصم] .

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف . ومنها أنها : امرأة العزيز . قال ابن كثير في تفسيره (٤٨٩/٢) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسباق الفصحة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وأندب لتصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأقرره بتصنيف علي حدة » .

[يوسف]

﴿ فَصَوَّرَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ .. ﴾ (٢٤)

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهاوسن بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يقلن :

[يوسف]

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .. ﴾ (٢٥)

فحين دخل طيسهن اتجهت العيون له ، والعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

[يوسف]

﴿ رَأَيْتُكُمْ عَنِ كَيْدِهِنَّ .. ﴾ (٢٦)

ومكنا نعلم أنه قد حدثت مقلّعات تدل على أن النسوة شوئن له مثل ما شوته امرأة العزيز ؛ وغلن أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فبتلقته هن ؛ وهذا دأب^(١) البيوت الفاسدة .

ومل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه ؛ فبدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٧)

[يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبن ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قلن :

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ جَلَّ دَأْبُ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٢٥) [عنقر] أي : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ قَرَأْتُ نِجْ سَبْعَ مِائَةٍ دَأْبًا .. ﴾ (٢٧) [يوسف] أي : مداولين مهتمين بدأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَطَّرَ لَكُمْ الْقَمْسَ وَالْقَمْرَ فَالْتَمَسْنَ .. ﴾ (٢٨) [إبراهيم] أي : مستميرين في الحركة دائرين فيها بلا انقطاع تهيبها لهما بالإنسان المعج . [القاموس القويم ٢١٩/١] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ﴾ (٥١) [يوسف]

وقد صرف الله عن الشيطان الذي يتكفل دائماً بالفقواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خلق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالِ لِمَ يَمُرُّكَ لِأَعْيُنِهِمْ^(١) أَجْمَعِينَ (٨٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٧) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعمز - هو كشيطان - عن غوايته ، ولا يجزئ على الاقتراب منه .
والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاء العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِنْ كَانَ فِصْهٌ قَدْ^(٢) مِنْ دَبْرٍ^(٣) فَكَذَّبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩٧) ﴾ [يوسف]

(١) اغواء : أضله وأرعبه في الشر والفساد . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ تَحْتَ غَوْنِهَا (٩٧) ﴾ [الفصل] أي : أضلناهم كما ضلنا . وغوى يقوى غياً غواية : انهكه في الجهل وهو ضد الرشاد . قال تعالى : ﴿ لَا أَقْرَأُ فِي النَّهْرِ قَدْ تَسَنَّى الرَّشْدَ مِنْ قَبْلِي (٩٨) ﴾ [البقرة] وغيره ؛ بمعنى خاب وقيل لأنه انهكه في الجهل . والشاوي : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَبَرَزَتْ لِفُجْعِهِمُ الْفَجَائِرِ (٩٩) ﴾ [الشعراء] أي : الضالين المنهكين في أصل الجهل . [القاموس القويم ٦٤/٢]

(٢) قد الذوب : شقه . قال تعالى : ﴿ وَقُلْتُ فِصْهٌ مِنْ دَبْرٍ (٩٨) ﴾ [يوسف] . والقصة : المقطعة المقطوعة من الذوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كأنها قُتَّتْ وقُطعت منها . قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَفَيْنِ فَفُتْنَا (٩٩) ﴾ [الجن] أي : جماعت مختلفة الرأي جمع قُتَّة . [القاموس القويم ١٠٢/٢]

(٣) الدبر : مؤخر كل شيء وعقب وظهره ضد القبل . قال تعالى : ﴿ وَقُلْتُ فِصْهٌ مِنْ دَبْرٍ (٩٨) ﴾ [يوسف] أي : من خلف . وولى المطارب دبره : كناية عن سراره . قال تعالى : ﴿ مَسْهُومٌ مُجْمَعٌ وَيُؤْثَرُ النَّبِيُّ (٩٩) ﴾ [الهمز] أي : ويغرون . وجمع دبر كدبر . قال تعالى : ﴿ رَأَيْدُ قِبَلِكُمْ يَوْمَ تَأْتِي سُرُونَ (١٠٠) ﴾ [ال صرمان] أي : يرون منكم منزهين ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ ذَلِكَ فِتْنَةٌ وَأَذْيَارُ السُّجُودِ (١٠١) ﴾ [ق] أي : عذب كل سجود أو عذب كل صلاة . [القاموس القويم ٢٢٠/١]

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حق أحد أن يتساءل : هل هم يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يهيم ؟

وفى الآية التي نحن بصدد خراطنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (٦٤)

[يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٦٥)

[الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بِمَا رُسُلُ..﴾

[النساء]

﴿(٦٦)﴾

أى : لا بد أن يبعث الحق رسولا للناس مؤيذا بمعجزة تجعلهم يصدقون المنهج الذي يسرون عليه ؛ كي يعيشوا حياتهم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذلل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ^(١) عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٦٧)

[يوسف]

والفحشاء هى الزنا والإتيان ؛ والسوء هى فكرة الهيم . وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشيء من حل إلى حل . وسرف التود : تغييرها أو إنفاقها . وسرف السجين : أخلى سبيله . وسرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿مَنْزِلَ اللَّهِ قَرِيبُهُمْ﴾ (٦٧) [التوبة] . [القاموس القويم ٢٧٤/١] .

مرحلة السُّعَار^(١) لحظة أن سبقها إلى الباب : فَكَّرْتُ نِي أَنْ تَقْتُلَهُ ؛ وحاول هو أن يذافِع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجَازَى كَقَاتِل^(٢) .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعني بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنني أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهمّ ، وهي مُقَدِّمَات الفعل .

ويقرر الحق سيحانه أن يوسف عليه السلام من عباده الْمُخْلِصِينَ . وفي هذا رد على الشيطان : لأن الشيطان قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣)

[ص]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤)

[يوس]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرُب عباد الله المخلصين ، وهناك « مُخْلِصِينَ » . و « مُخْلِصِينَ » والمخلص هو مَنْ جَاهَدَ فَكَسَبَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَالْمُخْلَصُ هو مَنْ كَسَبَ فَجَاهَدَ وَأَخْلَصَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ^(٣) .

وهناك أَناسٌ يَصِلُونَ بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهناك أَناسٌ

(١) السُّعَار : شدة الجوع . يقال : سُمِرَ الرجل . فهو مسعور . إذا اشتد جوعه وعطشه . والسُّعْر : شهوة مع جوع . والسُّعْر : الجنون . وسعار العطش : التهابة . والسعير والساعرة : النار . وقيل : لهبها . والسُّعْر والسُّعْر : حرها . [لسان العرب - مادة : سحر] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره أن من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بأمرأة العزيز أنه هَمَّ بضربها ودافعها عن نفسه ، والبرهان كَقَه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصد ما بالحرمان فاستغنت فحسبها . [راجع تفسير القرطبي ٣٤٨٨/٤] .

(٣) أخلصه الله : جعله سالماً شيئاً طَهِراً . واسم المفعول « مُخْلَصٌ » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف] أي : الأصفياء الانتباه المطهرين . وأخلص دينه لله : طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) [زمر] . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - والله المثل الأعلى - مُنْزَهٌ عن كل تشبيه ،
أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه
وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشي في الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من
فضل الله عليك ، أي : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه
أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخذ ورد ؛ ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿وَأَسْتَبِقَا الْبَابَ فَقَدْ تَقِمِصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيَّاسُ سِيدَهَا^(١)
لِذَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)﴾

ومررنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسايقا
في هذا الاستباق ، ونلاحظ أن الحق سبحانه يفكر هنا باباً واحداً ؛
وكانت امرأة العزيز قد غلقت من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْقَى سِيدَهَا لِدَا الْبَابِ .. (٦٥)﴾ [يوسف]

(١) ألقى الشيء : وجهه ، قال تعالى : ﴿لَهُمْ أَقْبُوا أَبَاهُمْ خَالِينَ (٦٥)﴾ [الصفات] . وقال :

﴿وَأَلْقَى سِيدَهَا لِدَا الْبَابِ .. (٦٥)﴾ [يوسف] أي : وجهه . [القاموس القويم ١٩٧/٢] .

(٢) ساد ثوبه يسونهم سيادة : شرف عليهم ودلهم ، فهو سائد وسيد وجميعه سادة :

﴿وَأَلْقَى سِيدَهَا لِدَا الْبَابِ .. (٦٥)﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، قال تعالى : ﴿وَسَيِّدًا وَخَصُورًا

.. (٦٥)﴾ [آل عمران] سيداً أي : شريكاً ورئيساً في الدين والعلم . وقال : ﴿إِنَّا أَلْقَيْنَا مَا دَقًّا

وَكَبِيرًا .. (٦٦)﴾ [الاحزاب] أي : رؤسنا من الملوك والأسراء . [القاموس القويم

يدلنا على أنها لحقت بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهي قد استبقت مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريد عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدت قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشنته من قميصه من الخلف ، وتمزق القميص في يدها ، وقد حُصّ الشاهد - الذي هو من أهلها^(١) - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿وَأَلْقَى سِدِّهَا لَدَا الْبَابِ..(٢٥)﴾

[يوسف]

أي : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ لَوَاذَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ..(٢٥)﴾

[يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥)﴾

[يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

(١) ذلك هو قوله تعالى : ﴿وَفِيهِ ذَمٌّ مِنْ أَمْنِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ لَبَرٍ فَصَنَعَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَلْبَيْنِ (٢٥) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الْعَادِلَيْنِ (٢٦)﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ^(١) شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا^(٢) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا^(٣) مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ^(٤) ﴾ [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين : قولها هي باتهام يوسف : وقوله هو باتهامها . ولا بُدَّ أن يأتي بمن يفصل بين القولين ، وأن يكون له دقة استقبال وفهم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ^(٥) ﴾

وتأتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعان متعددة .

(١) شهد : دلَّ بقول أو فعل . وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا^(٦) ﴾ [يوسف] .
[القاموس القويم ٢٥٨/١] . وقال القرطبي في تفسيره (٢٤٩١/٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أي : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٩٤/٤ ، ٣٤٩٥) :

« اختلف في هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل في السبد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الزائد فيه عن

النبي ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم في السبد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه

رجل حكيم لو عقل كان الوزير يستشير به في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، بنسرف .

(٣) قد الثوب : شق . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن فَرْجٍ^(٧) ﴾ [يوسف] والقد : القطعة

المقدودة من الثوب . والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كانتها قدت وأُثِمَتْ

منها ، قال تعالى : ﴿ كَمَا طَرَفَتْ لَقَدًّا^(٨) ﴾ [الحج] أي : جماعات مختلفة الآراء جمع قد .

[القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فهي مرة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا ^(١) طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وتأتي مرة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتي « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أي : رجح كلاماً على كلام لاستنباط حق في أحد الاتجاهين . والشاهد في هذه الحالة وثق القرآن أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُبَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَسُيِّئَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كذلك - أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أَقْبَلَ عليها ! تنلّى منه ثوبه على الأرض . فتعثر فيه ، فتمزّق القميص .

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

(١) أي : عذاب الزانية والزاني وإيذاء العقوبة بهما . وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمَا جُنَاحَ ابْنَيْكُمْ بِمَا رَفَعُوا فِي دِينِكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ تَوَّابِينَ ﴾ [النور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعيراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً . قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (٨١) ﴾ [يوسف] . [القاسم القرين]

أى : ان قميص يوسف عليه السلام إن كان قد من الخلف ؛
فيوسف صائق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأي قبل أن يشاهد القميص ؛ بل
وضع في كلماته الأساس الذي سينظر به إلى الأمر . وهو إطار دليل
الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ^١
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿لَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ .. (٢٨)﴾ [يوسف]

يدل على أنه رتب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقد بدأ أولاً
في غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحثية الفاتية
هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين لمرأة العزيز :

﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتدبر بها الكاذب ليتغلب على خصمه ،
ومن ذلك قوله : ﴿فَأَجْبِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًا (٢٢)﴾ [طه] أى : اجتمعوا الوسائل التى تكيدون
بها . [التاموس القويم ١٨٠/٢] .

مَنْ لَا يَمْلِكُ الْقِسْرَةَ عَلَى الْمَوَاجِهةِ ، وَكَيْدِ الْمَرْأَةِ عَظِيمٍ : لِأَنَّ ضَعْفَهَا أَعْظَمُ .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٦٩﴾

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف الرباعي عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يَقْرَأُ أن امرأته قد أخذت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعض من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده في عصرنا أيضاً ؛ قنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبى أن يرى أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغير أهله في مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمت به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملاحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

(١) أعرض عن الشيء : ولي منحرفاً عنه غير واجب فيه . قال ثعلبي : ﴿ أعرض وأعرض بفتح العين ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] ، قال القرطبي : « أي : لا تذكره لاجل واكتفه » . [تفسير القرطبي ٢٤٩٢/٤] .

(٢) القضا والخطأ : ضد الصواب . ولد خطيء يخطئ خطأ : أخطب مطلقاً أو تبعاً للذنب . قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لَمَّا خَلَّوْا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف] أي : متذكرين .

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والعنستين على المنحرفين ،
نعزیز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وهو في قوله هذا يُقَرُّ بأن ذنباً قد وقع : وهو أن يُقَرَّ بذلك إلا
إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه
إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ،
والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى موقف أوسع : وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه
القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور
عيوناً تتعسس^(١) عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه
يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها
مهما بلغت قدرة صاحبها على التستر والكتمان .

وقد تلخص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على
السنة النسوة .

(١) أصل العُتْسُ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كان يعمى بالمدينة . أي :
يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والمفسرون : اسم منه كالمطلب ، وقد يكون
جمعاً لعاس كعارس وحرس . [راجع لسان العرب - مادة : عسس] .